

التقوى

عناصر الموضوع

٤٢٢	مفهوم التقوى
٤٢٣	التقوى في الاستعمال القرآني
٤٢٤	الألفاظ ذات الصلة
٤٢٦	أصناف المخاطبين بالتقوى
٤٢٨	أساليب الأمر بالتقوى
٤٣٠	صفات المتقين
٤٤٩	مكانة التقوى
٤٥٣	فضائل التقوى
٤٧١	عاقبة التقوى وآثارها

مفهوم التقوى

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «وقي: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء بغيره، والوقاية: ما يقي الشيء. واتق الله: توقه»^(١). وقال ابن منظور: «وقي: وقاه الله وقياً ووقاية وواقية: صانه.. ووقيت الشيء: أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى.. وتوقى واتقى بمعنى، وقد توقيت واتقيت الشيء وتقيتهُ أتقيه تقى وتقية وتقاه: حذرته. والاسم: التقوى، التاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء»^(٢). وقال القرطبي: «والأصل في التقوى: وقوى، على وزن فعلى، فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي: منعته، ورجل تقى، أي: خائف، أصله: وقى، وكذلك: تقاة كانت في الأصل وقاة»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن كثير التقوى فقال: «التقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات»^(٤). ويقول ابن رجب الحنبلي: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»^(٥). قال البيضاوي: «والوقاية: فرط الصيانة، وهو في عرف الشرع: اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة»^(٦). قال أبو حيان في تعريف المتقي: «والمتقي في الشريعة هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما توعد عليه بعقوبة من فعل أو ترك»^(٧). فالتقوى في الاصطلاح: هي عبارة عن اجتناب ما نهى الله عنه، ويدخل فيه أداء ما فرضه الله على المسلم من الطاعات والواجبات.

(١) مقاييس اللغة ٦/ ١٣١.

(٢) معجم لسان العرب ١٥/ ٤٠١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٠.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص ١٣٨.

(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٨.

(٧) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٨.

التقوى في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (وق ي) في القرآن (٢٥٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٣٩) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]	٢٧	الفعل الماضي
﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]	٥٧	الفعل المضارع
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]	٨٢	الفعل الأمر
﴿وَتَكْزَبُوا فَمَاتَ حَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]	١٧	المصدر
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]	٤٩	اسم الفاعل
﴿إِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا مِنْهَمْ تَقْنَةً﴾ [آل عمران: ٢٨]	٢	اسم
﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣]	٣	صفة مشبهة
﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى﴾ [الليل: ١٧]	٢	اسم تفضيل

وجاءت التقوى في القرآن بمعناها في اللغة، وهي: من الوقاية التي تعني: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٥٨-٧٦١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٨١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإيمان:

الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق، وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان^(١).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول فيه: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد^(٢).

الإيمان اصطلاحًا:

التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا^(٣).

الصلة بين الإيمان والتقوى:

الإيمان هو التصديق بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والتقوى هي العمل بمقتضى هذا التصديق، فالتقوى مترتبة على الإيمان، والإيمان سبب لها.

٢ الخشية:

الخشية لغة:

قال ابن فارس: «الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوفٍ وذعرٍ»^(٤).

الخشية اصطلاحًا:

وعرف الأصفهاني الخشية بأنها: «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]»^(٥).

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢٠٧١/٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ٢١/١٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٢٩١، الإيمان، حقيقته، حوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص ١٩-٢١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص ٤١.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/١٤٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٣.

وعرفها الجرجاني بأنها: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجنابة من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»^(١).

الصلة بين الخشية والتقوى:

إن في الاتقاء معنى الاحتراس مما يخاف، وليس ذلك في الخشية^(٢)، فالخشية مقترنة بالعلم، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود سبحانه وتعالى فهي خوف مع تعظيم.

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦-٨٧.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١ / ٢٤٣.

أصناف المخاطبين بالتقوى

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الأمر بالتقوى والحض عليها، فورد الأمر بالتقوى للناس أفرادًا وجماعات: مؤمنين وغير مؤمنين، كما وردت على لسان كثير من الأنبياء والأولياء، مما يشير للأهمية الكبيرة للتقوى.

١. النبي عليه السلام.

فقد أمر الله سبحانه نبيه بالتقوى فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْغِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

قال البيضاوي: «ناداه بالنبي وأمره بالتقوى؛ تعظيمًا له وتفخيماً لشأن التقوى. والمراد: الأمر بالثبات عليه؛ ليكون مانعًا له عما نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَطْغِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين»^(١).

وقال ابن الجوزي: «فإن قيل: ما الفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيد المتقين؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه. والثاني: الإكثار مما هو فيه. والثالث: أنه خطاب ووجه به، والمراد: أمته»^(٢).

٢. الصحابة.

من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٧٦.

(٢) زاد المسير ٣/ ٤٤٦.

يَبْدُرِ وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فقد أمرهم الله سبحانه بالتقوى عسى أن تكون شكرًا للنعمة على نصره العظيم وقد كانوا قلة. قال ابن عطية: «أمر تعالى المؤمنين بالتقوى ورجاهم بالإنعام الذي يوجب الشكر. ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكرًا على النعمة في نصره بدر»^(٣).

٣. أولو الألباب.

أمر الله أولي الألباب بالتقوى في أكثر من موضع في كتابه منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونَ يٰٓأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: واتقون يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائضي عليكم التي أوجبتها عليكم في حجكم ومناسككم وغير ذلك من ديني الذي شرعته لكم، وخافوا عقابي باجتناب محارمي التي حرمتها عليكم؛ تنجوا بذلك مما تخافون من غضبي عليكم وعقابي، وتذكروا ما تطلبون من الفوز بجنتاتي. وخص -جل ذكره- الخطاب بأولي الألباب؛ لأنهم أهل التمييز بين الحق والباطل، وأهل الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تدرك وبالألباب تفهم، ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حظًا؛ إذ

(٣) المحرر الوجيز ص ٣٥٢.

الكتاب بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

٦. جميع الناس.

وكذلك ورد الأمر بالتقوى لجميع الناس.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدْوٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فقد ورد الأمر بالتقوى في الخطاب لجميع الناس، قال البيضاوي: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم... وترتيب الأمر بالتقوى...؛ لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليتها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه، على ما دلّت عليه الآيات التي بعدها^(٣).

كانوا أشباحا كالأنعام، وصورا كالبهائم، بل هم أضل سبيلا من البهائم^(١).

وقال ابن عطية رحمه الله «وخص ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل؛ لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بـ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ عام لجميع المكلفين، واللب العقل»^(٢).

٤. المؤمنون.

أكثر آيات الأمر بالتقوى موجهة للمؤمنين؛ لأن فيها جماع الخير كله.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].
وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والآيات كثيرة في ذلك؛ لأن القرآن الكريم يربط التقوى بالأوامر والنواهي والنصر والتمكين وغيرها، بصور وأشكال وأساليب مختلفة.

٥. أهل الكتاب.

وقد كانت وصية الله سبحانه لأهل

(١) جامع البيان، الطبري ٣ / ٥٠١.

(٢) المحرر الوجيز ١ / ٢٧٤.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١ / ٣٢٩.

أساليب الأمر بالتقوى

أولاً: أسلوب الغيبة أو الخطاب:

وقد تنوعت صيغة الخطاب فاستخدم القرآن الكريم الغيبة والخطاب المباشر في الحديث عن التقوى، وكان أكثر حديث القرآن بلفظ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بصيغة الخطاب المباشر المفيد للأمر بالتقوى، والمرتبط بمختلف الأحكام الشرعية وغيرها.

وقد يبدأ بالأمر بالتقوى أولاً؛ تمهيداً للدخول في الموضوع، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقد يأتي الأمر بالتقوى لاحقاً للأمر أو النهي عن أحكام معينة، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وهذه الأوامر وردت بصيغة الأمر.

وقد يرد الخطاب بالتقوى بصيغة الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِٗ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وصيغة الفعل المضارع؛ للتجدد

والاستمرار.

وقد يضاف الخطاب بنسبته المباشرة إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَتَسَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد خص بالخطاب أولي الألباب، قال البيضاوي: «حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى، فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب»^(١).

كما أنه سبحانه أضاف الأمر بالتقوى بالخطاب المباشر لذاته؛ لتربية المهابة، وتأكيد الأمر بالتقوى.

كما ترد التقوى بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

سواء كان ذلك بصيغة الفعل الماضي كما ذكر في الآية، أو بصيغة الفعل المضارع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۗ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٤].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٧٨.

سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم^(١).

المهم أن المأمور به من التقوى ما يستطيعه الإنسان؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ثم إن التقوى هبة من الله سبحانه وتعالى، لا يملك المرء هذه الملكة إلا بتوفيق منه سبحانه، فيبذل الإنسان جهده في تحصيلها، وأهم وسيلة أن يطلب بصدق من الله تعالى أن يهب له التقوى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتِهِمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يقول سيد قطب: «فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل: ﴿وَأَنَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]...، والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هبة الله، شاعراً برقابته، خائفاً من غضبه، مستطلعاً إلى رضاه، متحرّجاً من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها»^(٢).

ثانياً: أسلوب الحض على التقوى:

وقد ورد الحض على التقوى بألفاظ وأساليب مختلفة:

فقد يرد الحض بتحصيل التقوى لذاتها؛ لما فيها من جوامع الخير، وسعادة الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ويراد به القيام بما يقتضيه الأمر بالتقوى. لكن لما كان الأمر غير مقدور للإنسان أن يتقي الله حق تقواه طلب من المرء أن يتقي الله حسب استطاعته. عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال: «لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقبيهم وتفرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ تخفيفاً على المسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فنسخت الآية الأولى». لكن روي عن ابن عباس أنه قال عن آية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، ويقوموا لله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٥.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٤.

صفات المتقين

تحدث القرآن عن صفات المتقين وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولاً: صفات اعتقادية:

١. الإيمان بالغيب.

ورد من صفات المتقين الإيمانية أنهم

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

والغيب: ما غاب عن الحواس، ويقابله

الشهادة، أي: ما تشاهده الحواس.

ولقد نفى الله تبارك وتعالى علم الغيب

عن جميع المخلوقات إلا من أراد هو أن

يطلع على الغيب بالقدر الذي يشاء. فقد

نفى علم الغيب عن الإنسان وعن الجن

وحتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم

نفسه.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي

خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

مَلَكٌ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٠].

والجن الذين آتاهم الله بعض القدرة،

حيث كانوا يسترقون السمع نفى عنهم علم

الغيب فقال: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبِيتُ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

[سبأ: ١٤].

والإنسان محاط بالغيب المجهول

الذي يقف العقل عنده عاجزاً قاصراً. وقد

أثبت القرآن علم الغيب وجعل له مفاتيح

لا يعلمها إلا الله تعالى، وأن علم الغيب

منفي عن المخلوقات إلا ما يشاؤه الله

تعالى، والإيمان بالغيب يجعل الإنسان

يتجاوز ما تدركه الحواس فيتجاوز مرتبة

التفكير في هذا الوجود الذي كانت فيه

دلائل الوجدانية، ولهذا امتدح الله المؤمنين

المتقين بأنهم الذين يؤمنون بالغيب.

فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ

هُدًى لِلنَّاسِ ۗ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْمِنُونَ بِالصَّلَاةِ

وَصَارِفَتُهُمْ يَبْفِقُونَ ۗ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِزُونَ هُمُ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢

- ٤].

قال الألوسي: «واختلف الناس في المراد

به هنا على أقوال شتى..، والذي يميل إليه

القلب أنه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه

وسلم في حديث جبريل عليه السلام وهو

الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والقدر خيره وشره؛ لأن الإيمان

المطلوب شرعاً هو ذلك»^(١).

وفي التعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾

وهو فعل يفيد الاستمرار، فإيمانهم

حاضر لا يغيب وهو مستمر في نفوسهم،

ولا تجدهم لحظة يفقدون إيمانهم، ولا

مستلزمات إيمانهم، أو لاستحضار تلك

الصورة البديعة.

وفي اقتران الإيمان بالغيب بإقام الصلاة

(١) روح المعاني، الألوسي ١/١١٤.

فكانت لهم في الإيمان باليوم الآخر صفتان اثنتان:

الأولى: يوقنون بالآخرة.

اليقين هو الاعتقاد بالشيء من حيث لا يعتريه شبهة ولا شك، فإذا انتفت شبهة والشك عن الشيء سمي يقيناً.

قال الراغب: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم...، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. أي: ما قتلوه قتلاً تيقنوه، بل إنما حكموا تخميناً ووهماً»^(١).

ومن صفات المؤمن أنه يعتقد اعتقاداً يقيناً فينبغي أن لا يخالط اعتقاده أية شبهة أو شك. وقد جعل الله الأدلة التي تورث اليقين في النفس.

قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجنابة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وامتدح الله أنبياءه وعباده الصالحين حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذم الله الكافرين والمنافقين لعدم يقينهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٥٥.

وإيتاء الزكاة نجد أن الآيات تتحدث عن الإيمان قبل ذكر الصلاة والزكاة بعدها؛ لأن بينهما صلة: إن علاقة الصلاة بالإيمان بالغيب أنها المظهر العملي له، فالصلاة بها يستشعر الإنسان صفات الله، ويتذكر القرآن والرسول والملائكة واليوم الآخر، فالصلاة مذكورة بهذه المعاني كلها...

وأما علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب فذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصدقة برهان)^(١).

فالإنسان الذي ينفق ماله مع حبه له وحرصه عليه لا شيء وبدون مقابل سوى ابتغاء وجه الله فذلك دليل على إيمانه الله واليوم الآخر بشكل عملي ودقيق.

وإذا كان الإيمان بالغيب يشمل أركان الإيمان وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وقد أجملت الآية هذه القضايا بقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ولكن كان لإيمان المتقين بكل ركن من أركان الإيمان صفة خاصة.

٢. الإيمان باليوم الآخر.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم يؤمنون باليوم الآخر إيماناً يقيناً لا يخالطه أي شك أو ريب.

ومن صفاتهم أنهم مشفقون من الساعة،

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٠٣/١، ٢٢٣.

معنى ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣].

قال الراغب في بيان معنى القيام: «يقال: قام يقوم قيامًا فهو قائم، وجمعه: قيام... والقيام على ضرب: قيامٌ بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له، وقيام هو على العزم على الشيء. فمن القيام بالتسخير: ﴿قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

ومن القيام الذي هو بالاختيار: ﴿أَمَّنْهُوَ فَتَنْتِ أُمَّانَةٌ أَيْلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩].

ومن المراعاة للشيء قوله: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ومن القيام الذي هو العزم قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾

[المائدة: ٦].

وقوله ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

أي: يديمون فعلها ويحافظون عليها^(١).
فمعنى ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يداومون على أفعالها ويحافظون عليها.

وذكر البيضاوي معنى ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فقال: «أي: يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قومه، أو يواظبون عليها، من قامت السوق: إذا نفقت وأقمتها: إذا جعلتها نافقة.. فإنه إذا حوِّط عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٧.

عنه. أو يتشكرون لأدائها من غير فتور ولا توان، من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر وتقاعد. أو يؤديها، عبر عن الأداء بالإقامة؛ لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر؛ لأنه أشهر، وإلى الحقيقة أقرب وأفيد؛ لتضمنه التنبيه على أن الحقيقة بالمدح من راعي حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذكر في سياق المدح المقيمين الصلاة، وفي معرض الذم فويل للمصلين^(٢).

٢. إيتاء الزكاة والإنفاق.

وصف الله المتقين بأنهم يؤتون الزكاة، وذكر صفة زكاتهم وإنفاقهم، ومن هذه الصفات هي: ﴿وَأَنَّى الْمَالِ عَلَىٰ حَبِيبِهِ ذَوَىٰ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية تبين أن المتقين يؤتون المال على حبه.

✽ إيتاء المال على حبه.

فهذه الصفة من صفات المتقين أنهم يؤتون المال على حبه، أي: يدفعون

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٧.

للصدقات أفضل ما عندهم من مال، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون المقصود به الزكاة المفروضة ويحتمل أن يراد به النوافل، قال البيضاوي: ﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
«يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة»^(١).

وقال الألوسي: ﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] «بناءً على أن المراد بما مر من إيتاء المال نوافل الصدقات. وقدمت على الفريضة؛ مبالغة في الحث عليها، أو حقوق كانت في المال غير مقدرة سوى الزكاة»^(٢).
وعليه فقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون في الزكاة أو في نوافل الصدقات. وأياً ما كانت فإنها صفة امتدح الله بها المتقين، وهي أنهم يؤتون المال على حبه.

والضمير المجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ﴾

﴿حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].
عائد على المال «أي: أعطى المال كائنًا على حب المال. والتقييد بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ لبيان أفضل أنواع الصدقة»^(٣).

وقال ابن كثير: «أي: أخرجته وهو محب له راغب فيه»^(٤).
* الإنفاق في السراء والضراء.

وهناك آية أخرى وصفت إنفاق المتقين، وهي قوله تبارك وتعالى في وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال الراغب في بيان معنى الإنفاق: «نفق الشيء: مضى ونفذ.. والإنفاق قد يكون في المال وغيره، وقد يكون واجبًا، وقد يكون تطوعًا»^(٥).

وقال الألوسي: «والإنفاق: الإنفاق، يقال: أنفقت الشيء وأنفدته بمعنى، والهمزة للتعدي، وأصل المادة تدل على الخروج والذهاب»^(٦).

وقد حث الله تبارك وتعالى على الإنفاق وبذل المال، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(٣) المصدر السابق ٤٧/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٩٧/١.

(٥) المفردات ص ٥٠٢.

(٦) روح المعاني ١١٨/١.

(١) المصدر السابق ١/٣١٣.

(٢) روح المعاني ٤٧/٢.

خيرًا من الأخذ، وقد علموا أن ما أعطوه إنما هو ذخرٌ لهم عند ربهم تبارك وتعالى، وقد أنفقوا أموالهم في سبيله لا يبتغون إلا رضا وجهه الكريم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سِرِّهِمْ وَالنَّهْزِ السَّرَّاءِ وَالنَّهْزِ السَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أي: في اليسر والعسر.

قال أبو السعود: «في حالتي الرخاء والشدة واليسر والعسر، أو في الأحوال كلها؛ إذ الإنسان لا يخلو من مسرة أو مضرة. أي: لا يخلون في حالٍ ما يأنفق ما قدروا عليه من قليل أو كثير»^(١).

وقال ابن كثير: «أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال كما قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِخْفَاءِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى، والإنفاق في مرضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر»^(٢).

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع؛ لأنه يفيد التجدد والاستمرار.

قال الألوسي: «وأما الإنفاق حيث كان أمرًا متجددًا عبر عنه بما يفيد التجدد

وحدث على إخراج الطيبات من الرزق، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

بين سبحانه أجر الإنفاق فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَتَّبِعَهُنَّ مَرْغَبًا مِنَ اللَّهِ وَقَلِيلًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

كما بين الله تعالى أن الصدقة والإنفاق لا يذهبان بالمال، بل على العكس فهما ينيان المال أكثر.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِيَتَّبِعَهُ اللَّهُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وبهذه الصورة وامتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام لبي المتقون نداء ربهم، فجادت نفوسهم بالعطاء، فكان العطاء بالنسبة لهم

(١) إرشاد العقل السليم، ٣/ ٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٢.

والحدوث»^(١).

بينما عبر في آية أخرى بالجملة الاسمية فقال: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

وذلك أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستقرار، فالجملة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ تفيد التجدد والاستمرار والتي تبين استمرار إنفاقهم وتصديقهم. والجملة الثانية: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ تفيد المدح؛ لأنها منصوبة على المدح. وقد تم الجمع بين الجملة الفعلية والاسمية.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا زَنَعْتُمْ يَدَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٣].

فقد عبر هنا عن الشيء الذي ينفقونه بالرزق، والرزق: العطاء... وقيل: أصل الرزق الحظ. قال الراغب: «الرزق يقال للعطاء تارة -دنيوياً كان أم أخروياً- وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علماً»^(٢).

وفي الآية ﴿وَمَا زَنَعْتُمْ يَدَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٣]. «أسند الرزق إلى نفسه تبارك وتعالى؛ للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقاً منه...، وقدم مفعول الفعل دلالة على

كونه أهم، وكأنه قال: يخلصون بعض المال الحلال بالتصدق به»^(٣).
٣. الاستغفار.

وصف الله المتقين بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى، وكانت لهم في ذلك صفات مميزة.

قال تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا عَلَيْهِمْ يَأْتِيهِمْ مِنْهُمُ الذُّنُوبُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَلَىٰ مَا ظَلَمُوا وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْمَاءِ مَا يَدْعُونَ بِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَأَسْمَاءِ الْآلِهَةِ الَّذِينَ يُلَاقُونَ اللَّهَ بَرًّا أَوْ فِجْرًا يَحْمِلُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ كُلًّا وَلَمْ يُلَاقِ اللَّهَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَقْبَلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُرِيَهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ الرِّزْقُ رِزْقًا غَيْرَ كَرِيمًا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقون يستغفرون بالأسحار ولا يصرون على المعاصي.
* الاستغفار بالأسحار.

الاستغفار هو مغفرة الذنوب. وأصل الغفر: الستر والتغطية.

قال ابن منظور في لسان العرب: «وأصل الغفر: الستر والتغطية. وغفر الله ذنوبه، أي: سترها... واستغفر الله ذنبه -على حذف الحرف-: طلب منه غفره»^(٤).

فأصل كلمة غفر: ستر وغطى، وفي الاصطلاح: ستر الذنوب.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣.

(٤) لسان العرب، ٥/ ٢٥.

(١) روح المعاني ٤/ ٥٨.

(٢) المفردات ص ١٩٤.

المستغفرون... وقال آخرون: هم الذين يشهدون الصبح في جماعة.. وأولى هذه الأقوال قول من قال: هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها بالأسحار، وهي جمع سحر، وأظهر معاني ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء. وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرضهم لمغفرته بالعمل والصلاة، غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء^(٤). وقال القرطبي: «لا تناقض في ذلك فإنهم يصلون ويستغفرون»^(٥).

والحكمة في تخصيص وقت السحر بالدعاء والاستغفار: أنه أفضل الأوقات للعبادة والدعاء. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟)^(٦).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «وحكمة تخصيص السحر: أن العبادة تكون حينئذ أشق على أهل البداية؛ لأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم ويعزب الرياء، وأرواح لأهل النهاية؛ لأن النفس تكون أصفى، والقلب أفرغ من الشواغل»^(٧).

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠٩/٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٣٩/٤.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) المنار، محمد رشيد رضا ٢٥٣/٣.

والسحر: هو الوقت الذي يكون قبل طلوع الفجر.

قال الراغب في المفردات: «السحر والسحرة: اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار»^(١).

فوقت السحر ينتهي بطلوع الفجر. وهو آخر الليل قبيل الصبح. قال ابن كثير: «وأصح ما ورد في تحديد وقت السحر ما ثبت في الصحيحين وغيرهما... من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟)^(٢)»^(٣).

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى الاستغفار في الآية ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَغْفِرُوا﴾ [الذاريات: ١٨].

فقال بعضهم: المراد به: الدعاء. قال ابن جرير الطبري: «اختلف أهل التأويل في القوم الذين هذه صفتهم، فقال بعضهم: هم المصلون بالأسحار.. وقال آخرون: هم

(١) المفردات ص ٢٢٦

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا

كَلِمَةَ اللَّهِ﴾، رقم ٧٤٩٤، ١٤٣/٩، ومسلم

في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب

الترغيب في الدعاء، رقم ١٦٩، ١/٥٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣٣/١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [ق: ٣٣]. أي: من خاف خوفاً اقتضاه معرفته بذلك من نفسه^(٤).

والخشية ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى ولا يكون فيها خشية للناس.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولقد نهى رسوله أن يخشى الناس؛ إذ الخشية ينبغي أن تكون لله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وبما أن الخشية أكثر ما تكون عن علم بما يخشى منه فإن خشية الله أكثر ما تكون من خلال معرفته عز وجل بصفاته وآياته وأفعاله، فمن كان أعلم بالله تعالى كان أخشى له، لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الألوسي: «والمراد بالعلماء: العالمون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شئونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً، فمدار الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى...»

(٤) المفردات ص ١٤٩.

العظيم ووعيده، أو ذكروا العرض عليه، أو السؤال عن الذنب يوم القيامة أو نهيه أو غفرانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾

قال ابن كثير في معناه: «أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه»^(١).

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة)^(٢)

قال الراغب: «الإصرار: التعقد في الذنب والتشدد فيه والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله من الصر، أي: الشد»^(٣).
٤. خشية الله تعالى.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].
والخشية: خوف يشوبه تعظيم.

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم. وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم ١٥١٤، ٢/ ٨٤.
وحسنه ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٨٥.

(٣) المفردات ص ٢٧٩.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له) (١).

ولكونه المدار ذكرت الخشية بعد ما يدل على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس - كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير - (العلماء) في الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير (٢).

فمعرفة الله تبارك وتعالى تورث الخشية له، والعلماء العارفون بآيات الله وصفاته أكثر خشية له. ويدخل في إطار العلماء علماء الكون والطبيعة الذين يتوصلون لمعرفة أسرار الله في خلقه. فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل فيه على أن الله هو خالق هذا الكون والمتصرف فيه، حيث جعل فيه دلائل قدرته وبديع صنعه، فحث على النظر في ملكوت السموات والأرض، والتفكير في شئونهما، لذا كان العلماء الذين يتوصلون لاكتشاف بدائع صنع الله تعالى داخلون في الخشية التي خصهم الله بها، وهذا إن كانت هذه الأمور توصلهم لخشية الله تعالى.

٥. القنوت.

وصف الله المتقين بالقنوت، وهو طاعة الله عز وجل مع الخضوع له.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم ١١١٠، ٢/٧٨١.
(٢) روح المعاني ٢٢/١٩١.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُو۟بَيِّعُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنۢ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا۟ عِنۢدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيرٌۭ يَّال۞وٰعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَآمَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصّٰدِقِينَ وَالصّٰدِقَاتِ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

قال الراغب: «القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، وفسر بكل واحد منهما في قوله: ﴿وَقَوْمًا لِلَّهِ قٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَهٗ قٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون، ولم يعن به كل سكوت، وإنما عنى به ما قال عليه الصلاة والسلام: (إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الأدميين: إنما هي قرآن وتسبيح)، وعلى هذا قيل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: (طول القنوت)، أي: الاشتغال بالعبادة ورفض كل ما سواه (٣).

وقال الأئوسى: «﴿قٰنِتِينَ﴾ أي: المطيعين، قاله ابن جبير، أو المداومين على الطاعة والعبادة، قاله الزجاج، أو القائمين بالواجبات، قاله القاضي» (٤).

(٣) المفردات ص ٤١٣.
(٤) روح المعاني ٣/١٠٢.

وقال الألوسي عند قوله تعالى: ﴿وَقَوْمًا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «قَانِتِينَ» أي: مطيعين كما هو أصل معنى القنوت عند البعض، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما^(١).

فأصل معنى القنوت: هو الطاعة مع الخضوع، وإذا فسر معناه بعبارات أخرى فإنه ينطوي تحت هذا المعنى، وقد وصف الله المتقين بالقنوت، وهذا يشمل الصلاة وغيرها.

ثالثاً: صفات المتقين الخلقية والسلوكية:

١. الصبر.

وصف الله تبارك وتعالى المتقين بالصبر، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْتِنِعْتُمْ يُخْتَرُ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِيَذِرَ ٱتَّقِيَ ٱتَّقُواْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِّنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِصِيرَتِ ٱلْمُجِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱنصُرْنَا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّبْرِيْنَ وَٱلصَّٰبِرِيْنَ وَٱلْقٰنِتِيْنَ وَٱلْمُنْفِقِيْنَ وَٱلْمُسْتَفْزِعِيْنَ ۝١٦ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْزِعُونَ ۝١٧﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وقضية الفقر ابتلاء من الله تبارك وتعالى لعباده، فمن صبر كان من المتقين الذين وصفهم الله وامتدحهم بالصبر على الفقر، لذلك كان الفقراء الصابرون أكرم عند الله تعالى، وكان أكثر أهل الجنة من الفقراء. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)^(٥). وروى البخاري ومسلم

وقال أبو حيان: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر»^(٢)، وقال الألوسي: «(البأساء): البؤس والفقر»^(٣)، وقال الراغب: «البؤس والبأساء في النكايه»^(٤).

وأصل كلمة بؤس وبأس: الشدة والمكروه، لكن ورد عن كثير من المفسرين أن المراد بها هنا: الفقر، ولا يمنع أن يراد بها كل شدة أو مكروه، ومنها الفقر.

وقضية الفقر ابتلاء من الله تبارك وتعالى لعباده، فمن صبر كان من المتقين الذين وصفهم الله وامتدحهم بالصبر على الفقر، لذلك كان الفقراء الصابرون أكرم عند الله تعالى، وكان أكثر أهل الجنة من الفقراء. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)^(٥). وروى البخاري ومسلم

(٢) البحر المحيط، ٨/٢.

(٣) روح المعاني ٤٨/٢.

(٤) المفردات ص ٦٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨٣/١٦، رقم ١٠٦٥٤، والترمذي في سننه، أبواب الزهد باب ٣٨، ٥٧٨/٤، رقم ٢٣٥٤. قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمًا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «قَانِتِينَ» أي: مطيعين كما هو أصل معنى القنوت عند البعض، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما^(١).

فأصل معنى القنوت: هو الطاعة مع الخضوع، وإذا فسر معناه بعبارات أخرى فإنه ينطوي تحت هذا المعنى، وقد وصف الله المتقين بالقنوت، وهذا يشمل الصلاة وغيرها.

ثالثاً: صفات المتقين الخلقية والسلوكية:

١. الصبر.

وصف الله تبارك وتعالى المتقين بالصبر، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْتِنِعْتُمْ يُخْتَرُ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِيَذِرَ ٱتَّقِيَ ٱتَّقُواْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِّنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِصِيرَتِ ٱلْمُجِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱنصُرْنَا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّبْرِيْنَ وَٱلصَّٰبِرِيْنَ وَٱلْقٰنِتِيْنَ وَٱلْمُنْفِقِيْنَ وَٱلْمُسْتَفْزِعِيْنَ ۝١٦ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْزِعُونَ ۝١٧﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾

(١) المصدر السابق ١٥٧/٢.

ففي الابتلاء في المرض تكفير للسيئات وحط للذنوب حتى يلقي الله وما عليه خطيئة من كثرة ما أصابه من البلاء.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة) (٤).

✽ الصبر حين البأس.

أي: في مواطن القتال عند لقاء الأعداء، وعندها يكون الصبر فريضة لازمة ويكون الفرار من الزحف من الموبقات التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا ما ذكر القتال والحث عليه فإنه غالباً يذكر الصبر، وغلبة الأعداء مقترنة بالصبر بعد إعداد العدة والتوكل على الله وإخلاص النية لله تعالى، فلا غلبة بلا صبر.

ولهذا يأمر الله المؤمنين بالقتال والثبات

والصبر، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا فَانفَلتُوا وَتَذَهَبَ بِرِجْلِكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]

[٤٦ -].

عن ابن عباس وعمران بن الحصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) (١).

✽ الصبر في الضراء.

الضراء من الضر، وهو عكس النفع، وهو سوء الحال إما في النفس أو في البدن أو في حالة ظاهرة من قلة مال أو جاه أو نحوه.

وقد ورد عن المفسرين تفسير الضراء بالمرض والأسقام.

قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر، وأن الضراء الزمانة في الجسد، وإن اختلفت عباراتهم» (٢).

وقال الألوسي: «الضراء: السقم والوجع» (٣).

وقد يراد به كل ما يضر الإنسان من مرض أو غيره.

فما يصيب الإنسان من ضر أصابه سواء كان في بدنه أو في نفسه أو غير ذلك إنما هو ابتلاء من الله تبارك وتعالى؛ ليعلم الصابر من غير الصابر.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤٨/١٣، رقم ٧٨٥٩، والترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/٦٠٢، رقم ٢٣٩٩. قال الترمذي: حسن صحيح.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/١١٣، رقم ٦٥٤٦.
(٢) البحر المحيط ٨/٢.
(٣) روح المعاني ٤٨/٢.

يجدها الإنسان من فوران دم قلبه»^(٢).
وقال الألويسي: «والغيظ: هيجان في
الطبع عند رؤية ما ينكر»^(٣).

والكظم معناه: الحبس.

قال أبو السعود: «والكظم: الحبس يقال:
كظم غيظه، أي: حبسه، قال المبرد: تأويله
أنه كتمه على امتلائه منه، يقال: كظمت
السقاء إذا ملأته وشدت عليه»^(٤).

والمعنى المراد: «والمترجرين للغيظ،
الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه،
فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم، ولا
يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك
مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام، وهذا هو
الممدوح»^(٥).

روى الترمذي وأبو داود عن معاذ بن
أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن
ينفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس
الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور ما
يشاء)^(٦).

ويشتد الأمر بطلب الصبر عندما تتحكم
القوى والنفوس، وعندها يتبين الصابر من
غيره.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم
يحث على الثبات عند لقاء العدو، فقد روى
البخاري ومسلم عن عبدالله بن أبي أوفى
رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها
العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم
فقال: (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو،
واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا،
واعلموا أن الجنة تحت ظلل السيوف)»^(١).

٢. كظم الغيظ.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُومِ الْغَيْظِ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

والغيظ يعني: حبس النفس عند الغضب،
وهو: أشد أنواع الغضب، والغضب: هيجان
في الطبع.

قال الراغب في بيان معنى الغيظ:
«الغيظ: أشد غضب، وهو الحرارة التي

(٢) المفردات ص ٣٦٨.

(٣) روح المعاني ٥٨/٤.

(٤) إرشاد العقل السليم، ٨٥/٢.

(٥) روح المعاني ٥٨/٤.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب،
باب من كظم غيظاً، ٢٤٨/٤، رقم ٤٧٧٧،
والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم
٢٤٩٨.

قال الترمذي: حسن غريب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد
والسير، باب لا تتمنوا لقاء العدو، ٦٣/٤، رقم
٣٠٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد،
باب كراهية تمنى لقاء العدو، ١٣٦٢/٣، رقم
١٧٤٢.

عمرو البدرى رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا! فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: (إن منكم منفرين، فأياكم أم الناس فليؤجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة)»^(٣).

٣. العفو.

بعد أن أخبر الله تعالى عن المتقين أنهم (الكاظمين الغيظ) فلا يظهرون غيظهم إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى، أخبر الله عنهم - إتماماً لتلك الصفة - أنهم يعفون عن الناس.

فقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فكانت صفة العفو من صفات المتقين الراسخة فيهم. ومعنى العفو: ترك عقوبة المذنب أو المخطئ.

قال الراغب: «عفوت عنه: قصدت إزالة

فصفة حبس النفس عند الغضب وعدم الانتقام من صفات المتقين التي امتدح الله بها المتقين. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه أن لا يغضبوا، وبين أن الشديدي ليس الذي يصرع الناس، إنما الشديدي هو الذي يملك نفسه ويضبطها عند الغضب. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: (لا تغضب) فردد مراراً، قال: (لا تغضب)^(١).

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديدي بالصرعة، إنما الشديدي الذي يملك نفسه عند الغضب)^(٢).

ورسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم كما كان مثلاً يحتذى في كل شيء حسن كان مثلاً في عدم الغضب وفي كظم الغيظ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا لأمر يستدعي الغضب، فإنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الشريعة.

روى البخاري عن أبي مسعود عقبة بن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/٢٨، رقم ٦١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/٢٨، رقم ٦١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلوة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ٤/٢٠١٤، رقم ٢٦٠٩.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام، ١/١٤٢، رقم ٧٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، ١/٣٤٠، رقم ٤٦٦.

ذنبه»^(١).

ومعنى قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أنهم يتركون عقوبة من استحقها.

قال الألوسي: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته، إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين»^(٢).

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالعفو، فقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

كما وصف الله تعالى نفسه بالعفو، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وصفة العفو صفة حميدة «لا تصدر إلا من نفس كبيرة راجحة العقل، صبرت على اعتداء الغير وأذاه... وإن مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع من المعتدي البغضاء، وتتركه مندهشاً فيرتد غالباً عن غيه وتنقلب بغضاؤه إلى مودة»^(٣).

وقد بين القرآن أن المعاملة الحسنة مع الأعداء تجعلهم ينقلبون عن عداوتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِلَّذِي يَلِدُكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ تَمُوتُ حَيًّا﴾ [فصلت: ٣٤].

ولهذا أمر الله تعالى بالعفو ووصف به المتقين. وفي الآية: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وصف للمتقين بالجملة الاسمية التي تفيد الثبات والاستمرار وأنها صفة راسخة فيهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تمثلاً بصفة العفو، فكان العفو شيمته صلى الله عليه وسلم، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)»^(٤).

٤. الصديق.

وصف الله المتقين بالصدق حيث قال: ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا لَدَيْكُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِعْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ١٧٥/٤، رقم ٣٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة أحد، ١٤١٧/٣، رقم ١٧٩٢.

(١) المفردات ص ٣٣٩.

(٢) روح المعاني ٥٨/٤.

(٣) روح الدين الإسلامي، عفيف طيارة ص ٢١٦.

والمراد به: ما عاهد عليه المسلم الله من الوفاء والتكاليف والالتزامات التي شرعها، قال الراغب: «وعهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسنة ورسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]»^(٣).

وقد جعل الأخير عهدًا مع الله؛ لأن الإنسان يتعامل مع الله من خلال تعامله مع الناس، فلا يجوز نقض العهد؛ لأن الله أمرنا بذلك.

وأول عهد يطالب الإنسان بالوفاء به: عهده مع الله عز وجل بالإقرار له بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يفني الإنسان بهذا العهد حتى يعتقد علمًا وعملاً أن الله وحده له حق الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، فعنه يتلقى وله يطيع. ومتى أعطى المسلم حق الطاعة المطلقة، أو حق التشريع والتحليل والتحريم لأحد غيره من هيئة أو جماعة أو

القرآن... وجملة: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ صلة موصول محذوف تقديره: والذي صدق به؛ لأن المصدق غير الذي جاء بالصدق»^(١). وقال الشوكاني: «وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده. واختار هذا ابن جرير، وهو الذي اختاره من هذه الأقوال»^(٢).

وعليه يحتمل أن يكون المعنى أن الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي صدق به هم المؤمنون، فقد ترجموا القرآن إلى سلوك عملي، كما كان رسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبرت عنه عائشة: «كان خلق رسول صلى الله عليه وسلم القرآن». فهؤلاء المؤمنون الذين ترجموا القرآن إلى واقع هم المتقون.

٥. الوفاء بالعهد.

قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْدَهُنَّ بِمَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومعنى الوفاء بالعهد: إتمامه وافيًا بكامل حقوقه وشروطه، وعدم نقضه. ومعنى وفي وأوفى: أعطى الحق وافيًا. والعهود نوعان: عهد مع الله، وعهد مع الناس. ﴿العهد مع الله تعالى.﴾

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٤.

(٢) فتح القدير ٤/٢٦٣.

(٣) المفردات ص ٣٥٠.

كل عهد أو عقد يجعله الإنسان مع غيره من أمور الدنيا وغيرها، كالوفاء بالالتزامات التي يجريها الإنسان في معاملاته اليومية، في زواجه وبيعه وشرائه وشركته ومزارعته ما دامت عقودها جائزة شرعاً.

ويدخل فيه الوفاء ببيعة الخليفة، وهي أن يطاع الخليفة أو الأمير الذي اختاره الخليفة مكانه في غير معصية، لذلك حث الله ورسله على طاعة أولي الأمر، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)^(١).

ب- التعامل مع غير المسلمين: ويدخل فيه العهد مع المشركين حينما كان جائزاً في أول الإسلام، والذي انتهى بنزول سورة التوبة التي تأمر بقتل المشركين أينما وجدوا. كما يدخل فيه العهد مع أهل الكتاب، حيث لا يجوز نقضه إلا إذا نقضوه أو ظهر منهم ما يشير إلى الخيانة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب السمع والطاع للإمام، ٤/٤٩، رقم ٢٩٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/١٤٦٩، رقم ١٨٣٩.

فرد أو مجلس فقد نكث بعهد الله وميثاقه. ومن العهد مع الله الالتزام بالشريعة الإسلامية وتوفية حقوق الله كاملة، فإن من حق الله على عباده أن يطاع فلا يعصى. والوفاء بالالتزام بالشريعة يعني أداء الحقوق كاملة، فالصلاة تؤدي كاملة، وكما أمر تبارك وتعالى من الشروط الظاهرة والباطنة كالخشوع وغيره، وكذلك الزكاة، وكذلك كل عمل يقوم به المرء يقصد التقرب إلى الله تعالى، فإن الوفاء بالعهد يعني توفيته كاملاً غير منقوص ومراعاة حقوقه وشروطه. والوفاء بعهد الله في الجهاد يعني أن يجاهد المرء ويثبت في ذلك حتى ينال الموت في سبيل الله أو النصر على الأعداء، وعلى هذا قوله تعالى في مدح رجال من المؤمنين: ﴿بِجَالٍ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَنَنْهَاهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بُدْيَالًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

✽ العهد مع الناس.

ويدخل فيه كل تعامل مع الناس. والواقع أن هذا العهد يدخل في العهد الأول؛ لأن التعامل مع الناس يعني التعامل مع الله، ولهذا لا يجوز للمسلم نقض العهد مع أي إنسان كان مسلماً أو غير مسلم.

والوفاء بالعهد واجب سواء كان تعاملًا مع المسلمين أم مع غير المسلمين.

أ- التعامل مع المسلمين: ويدخل فيه

مكانة التقوى

للتقوى مكانة عظيمة في الدين؛ لأن فيها سعادة الدنيا والآخرة، وقد ورد في مكانتها الكثير، منها أنها خير زاد وأجمل لباس، لذلك أوصى الله بها وصية للأولين والآخرين، وأوصى بها جميع الرسل أقوامهم. ويمكن بيانها من خلال ما يأتي:

أولاً: التقوى خير زاد:

قال تعالى: ﴿وَتَكَرَّرُوا قِلَابًا حَتَّىٰ زَادَ النَّقْوَىٰ وَأَنْفَعُونَ بِتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأصل الزاد من الزيادة، ومعناها: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر. والزيادة قد تكون زيادة فضل، وقد تكون زيادة مذمومة، فإن كانت لا حاجة لها أو تؤدي إلى ضرر فهي مذمومة، وإن كانت زيادة فضل فهي محمودة. والزاد هو الشيء المدخر الزائد على ما يحتاج إليه في الوقت. والتزود هو أخذ الزاد^(٢).

والتقوى خير زاد يتزود به. واستخدام القرآن الكريم لفظ الزاد للتقوى للإشارة إلى استخدامها وقت الحاجة، بمعنى أن يبذل الإنسان جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليستخدمه وقت الحاجة والشدة.

قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانذِرْ لَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومعنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أن يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة^(١). ولذلك وصف الله المتقين بالوفاء بالعهد حيث قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بالعهد هنا: ما يشمل كل الحقوق سواء كانت حقوقاً لله أو حقوقاً للناس.

(٢) المفردات ص ٢١٦.

(١) فتح القدير ٢/ ٣٢٠.

والمرء بحاجة إلى الزاد في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فهو أمر ظاهر؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله في الدنيا، ولن يكون له من عمله إلا ما سعى، ويبقى عمله مستمراً في العلم الذي يتفجع به الآخرون والصدقة الجارية والولد الصالح الذي يدعو له.

وكذلك يحتاج المرء إلى التزود في الحياة الدنيا، فيبذل جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليكون عوناً له على ذلك وقت الشدة.

وفي الحديث: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)^(١).

ولا يعني مفهوم التزود بالتقوى ترك زاد الدنيا، أو ترك الأخذ بأسباب الحياة، فإن هذا المفهوم خاطئ، بل إن الأخذ بأسباب الحياة من التوكل الحقيقي مطلوب. وما ورد من روايات وأسباب النزول يوضح المعنى الحقيقي لمفهوم التزود.

فكان بعض العرب يحجون ولا يتزودون من الطعام، معتبرين أن ذلك هو التوكل الحقيقي، وكانوا يقولون: كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون: نحن متوكلون على الله

سبحانه!^(٢).

بل إن بعضهم كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زاداً آخر فكان يتوكل بعضهم على بعض. فنزلت الآية تبين لهم خطأ هذا المفهوم، وأن التزود بالطعام لا يتنافى مع أعمال الحج، وأرشدهم للزاد الحقيقي الذي هو التقوى.

وذكر البخاري أن هذا المفهوم كان عند أهل اليمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة

سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَسَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]»^(٣).

ثانياً: التقوى أجمل لباس يتزين به العبد:

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلٰىكَ لِبَاسًا يُؤْتِي سَوْءَ نِكْمٍ وَرِيْشًا وَّلِبَاسَ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ اٰيٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَدْخُرُوْنَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

واللباس اسم للشيء الذي يستر عورة الإنسان، سواء كانت مادية أو معنوية. والعورة: سوءة الإنسان، وهي كناية، وأصلها من العار. والسوءة هي كل ما يسيء

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/٥، رقم ٢٨٠٣.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٦١.

(٢) فتح القدير ١/٢٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَسَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ١٣٣/٢، رقم ١٥٢٣.

قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مَّتَطْمِئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رِزْقًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

لذلك كان لباس التقوى أجمل لباس يلبسه المرء، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَأْسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وللمفسرين في معنى (لباس التقوى) عشرة أقوال أوردها ابن الجوزي في زاد المسير، وهي:

١. السمات الحسن.
٢. العمل الصالح.
٣. الإيمان.
٤. خشية الله تعالى.
٥. الحياء.
٦. ستر العورة للصلاة.
٧. الدرع وآلات الحرب.
٨. العفاف.
٩. ما يتقى به الحر والبرد.
١٠. ما يلبسه المتقون في الآخرة خير مما يلبسه أهل الدنيا^(٣).

ولا مانع من إرادة الجميع. ولباس التقوى خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فهو بادي العورة.

الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية. وكني بالسوءة عن الفرج^(١)؛ لأن كشف السوءة أمر مناف للفتنة.

فاللباس يستخدم لمعنى التغطية والستر، فيسمى ما يستر عورة الإنسان لباسًا، وكذا تغطية معايبه. وسمي الأزواج من الذكور والإناث لباسًا، حيث يمنع كل واحد الآخر ويكون عونًا له في ستر معايبه.

قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لِهِنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال أبو السعود: «وجعل كل من الرجل والمرأة لباسًا للآخر؛ لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل... أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور»^(٢).
وجعل الليل لباسًا؛ لكونه يستر الناس بظلامه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

واستخدم القرآن الكريم كلمة اللباس للوجوع والخوف؛ لكونه غشيه من كل جانب.

(١) المفردات ص ٢٥٣.

(٢) إرشاد العقل السليم، ١/٢٠١.

(٣) انظر: زاد المسير ص ٤٨٩.

ثالثاً: وصية جميع الرسل لأقوامهم بالتقوى:

التقوى شعار المؤمنين ووصية الله تعالى للخلق أجمعين، وكانت هدفاً عاماً بعث من أجله الرسل، كما كانت من أهم ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته.

فقد أوصى الله تبارك وتعالى جميع الخلق بتقواه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِنَّا كُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكانت التقوى من أهم ما دعا إليه الأنبياء أقوامهم. فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه لتقوى الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٦) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٨) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

وإبراهيم عليه السلام يدعو للتقوى: ﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وكذلك موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) ﴿قَوْمٌ فَرِحُوا أَنْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

وعيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِآيَاتِنَا قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ

بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهود: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٥) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٢٦].

ولوط: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٢) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٣].

وإلياس: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٤].

وصالح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٤٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٤٢ - ١٤٤].

وشعيب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٨) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩].

وكذلك وصف يحيى بن زكريا بالتقوى: ﴿يَبِيحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ (١٢) ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢ - ١٣].

فهذه نبذة عما ورد على لسان الأنبياء من التقوى تبين فيها الأهمية البالغة للتقوى.

المسلمين بلغوا درجة إيمانية عالية، فقد ذكرت المعية مع المتقين والمحسنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وذكرت المعية مع الصابرين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أما الولاية فهي عامة لكل المؤمنين: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذه المعية هي المعية الخاصة؛ لأن المعية معيتان: خاصة وعامة، فالمعية العامة لكل البشر، وهي معية ملاحظة ومراقبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أما المعية الخاصة فهي تعني: العون والتأييد والنصر والهداية.

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهدية وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق -الذي ذكره القرآن وهما في الغار-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فضائل التقوى

للتقوى فضائل بينها القرآن الكريم للحث على التخلق بها، نبيها فيما يأتي:

أولاً: فضائل التقوى في العلاقة مع الله:

١. معية الله تعالى.

ومعيته تعالى نوع من ولايته، فالمعية تعني التأييد والنصر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال الراغب: «(مع): يقتضي الاجتماع إما في المكان، أو في الزمان، أو في المعنى.. وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معاً في العلو، ويقتضي معنى النصر، وأن المضاف إليه لفظ (مع) هو المنصور، نحو قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].. أي: ناصرنا»^(١).

فأصل هذا الحرف يقتضي الاجتماع كما يقتضي معنى النصر.

وذهب أبو السعود إلى أن المعية تعني: «الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن»^(٢).

فالمعية أبلغ من الولاية.

والمعية لم تذكر إلا مع أصناف من

(١) المفردات ص ٤٧٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/٦٦.

بينهما ما ليس منهما. ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة، والنصرة، والاعتقاد. والولاية - بكسر الواو - : النصر، والولاية - بفتح الواو - تولي الأمر.. وحقيقته: تولي الأمر^(٤). فأصل كلمة الولاية تعني القرب. والولاية تعني تولي الأمر بالرعاية والعناية لأوليائه على أعدائه؛ لأنه يتولاها بتأييده ونصره.

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الولي فقال: ﴿أَبِرْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

أي: إن الله وحده هو الولي، فالولاية الحقيقية له تبارك وتعالى. والولاية ولايتان: * ولاية عامة لكل الناس جميعاً. * ولاية خاصة للمؤمنين.

فالله ولي المؤمنين والكافرين من حيث التصرف في شؤونهم وأرزاقهم ونصرهم أو خذلانهم.

قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]^(١).

٢. ولاية الله تعالى.

من ثمرات التقوى أن الله تعالى يكون ولياً للمؤمنين يتولاهام بعنائه وتأييده ونصره.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وتدل أصل كلمة الولاية على القرب، قال الألويسي: «والأولياء جمع ولي من الولي، بمعنى: القرب والदनو، يقال: ولي، أي: قرب»^(٢).

وقال ابن عاشور: «الولي: الموالي، أي: المحالف والناصر. وكلها ترجع إلى معنى الولي - بسكون اللام -، وهو القرب، وهو في معنى الولي كلها قرب مجازي»^(٣).

وقال الراغب: «الولاء والتوالي أن يحصل شيثان فصاعداً، حصولاً ليس

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٧٣/٢.

(٢) روح المعاني ١١/١٤٦.

(٣) التحرير والتنوير ١١/٢١٦.

(٤) المفردات ص ٥٣٣.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وبين أن صف الكافرين واحد، وأنهم
أولياء لبعضهم البعض: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كما بين أنه لا قيمة أبداً لمن اتخذه
الكافرون أولياء، وأنه لا يملك لغيره، بل
ولا لنفسه نفعاً ولا ضرراً: ﴿قُلْ أَفَاتَّخِذْتُمْ مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾
[الرعد: ١٦].

لهذا عبر عنهم أنهم ليس لهم ولي:
﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[الشورى: ٨].

كما بين أن الولاية الحقيقية لمن لا
يؤمنون هي ولاية للشيطان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:
٢٧].

وقد نفى الإيمان عن الذين يوالون
الكافرين: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقد شبه الله الذين اتخذوا أولياء من
دون الله بالعنكبوت عندما تتخذ بيتاً:
﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا
وَأَنَّ أَوَّهًا أَبْيُوتٍ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وَأَسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾
[النساء: ١٧٣].

أي: إن الذين اتخذوهم أولياء لا
ينصرونهم في شيء فالولاية والنصرة
الحقيقية من الله تعالى.

أما الولاية الخاصة فهي ولاية المؤمنين،
وذلك بتأييدهم ونصرهم على عدوهم، كما
قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:
٢٥٧].

ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين باتخاذ الله
وليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وبين أن النصر والغلبة والتأييد من عنده
تبارك وتعالى، وأن الذين يجعلون الله وليهم
ورسوله والمؤمنين هم الغالبون الظافرون.
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

كما أنه تعالى يخرج أولياءه من الظلمات
إلى النور: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأنه يكفي المؤمنين أن يكون الله وليهم:
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].
أما الذين يتخذون من دون الله ولياً
فإنهم خاسرون ولا يجدون ولياً أبداً يراعاهم
ويؤيدهم وينصرهم، لهذا نهى الله المؤمنين
عن اتخاذ الكافرين أولياء لهم.

وبهذا وصف المتقين بأولياؤه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وقد فسر معنى الأولياء هنا بأنهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. قال ابن عاشور: «ودل قوله: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ على أن التقوى ملازمة لهم، أخذًا من صيغة ﴿وَكَانُوا﴾، وأنها متجددة منهم؛ أخذًا من صيغة المضارع في قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾»^(١).

وقال أبو السعود: «فملاك أمر الولاية هو التقوى»^(٢).

وقال ابن عاشور: «وهذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعًا»^(٣).

وكذلك وصف الله تعالى نفسه أنه ولي المتقين، فقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البجائية: ١٩].

فإنه إذا كان صف الظالمين واحدًا وأنهم أولياء بعضهم فإن صف المتقين صف واحد، والله وليهم جميعًا، فهو متولي أمرهم بتيسير أمورهم ونصرهم وعونهم وتأيدهم.

٣. حب الله تعالى.

تدل أصل كلمة الحب على ميل القلب إلى أمر يراه خيرًا ويستلذ به، قال الراغب: «والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، وهي ثلاثة أوجه: محبة للذة؛ كمحبة الرجل المرأة... ومحبة للنفع؛ كمحبة شيء ينتفع به... ومحبة فضل؛ كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم. وربما فسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الإرادة، وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه»^(٤).

وقد تحدث الألويسي عن المحبة ومعناها فقال: «فالمحبة لغة: ميل المتصف بها إلى أمر ملذذ ثم تكلم عن أنها يمكن توفرها في العبد حقيقة... أما محبة الله للعبد فهي من المشابهات، فقال: «وأنت تعلم أن ذلك من المشابه، والمذاهب فيه مشهورة»^(٥).

وقال البيضاوي: «ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة»^(٦).

(٤) المفردات ص ١٠٥.

(٥) روح المعاني ٦/١٦٣.

(٦) أنوار التنزيل، ٢/١٥٥.

(١) التحرير والتنوير ١١/٢١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/١٥٩.

(٣) التحرير والتنوير ١١/٢١٧.

وإذا أحب الله تعالى عبدًا من عباده فإنه يوقع له المحبة من أهل السماء وأهل الأرض. ففي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبيه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض) (٤).

وكذلك إذا أحب الله تعالى عبده فإنه يؤيده وينصره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته،

باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حبه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

وذكر ابن القيم عن محبة الله لعبده فقال: «محبة الرب لأوليائه وأنيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره أتم نصيب» (١). وعلى كل حال فإن المحبة كما قال ابن القيم: «لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدا وثمراتها وأحكامها» (٢).

وقد رسم لنا القرآن الكريم الطريق العام لنيل محبة الله تعالى، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإن الطريق لنيل محبة الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله.

وكذلك بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم الطريق لنيل محبة الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) (٣).

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٩ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق،

ولئن استعاذني لأعيذنه^(١).

لذلك قال الله تعالى في ذكر بعض ثمرات التقوى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

والتقوى صفة من جملة الصفات التي إن تحلى بها المرء نال حب الله تعالى، فقد ذكر القرآن أن الله يحب من اتصف بصفات معينة، وهذه الصفات هي أمهات الفضائل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْضُوعًا﴾ [الصف: ٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: (إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي)^(٢).

فالتقوى صفة من الصفات التي يحب

الله من اتصف بها.

٤. رحمة الله تعالى.

ومن ثمرات التقوى نيل رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومعنى رحمة الله تعالى لعباده هي: العطف والإنعام والإحسان والرأفة.

والله رحيم بهذا الإنسان يراعاه ويعينه في كل لحظة من لحظات حياته، ولولا رحمة الله بهذا الإنسان لما استطاع العيش ولا للحظة واحدة، إنه المخلوق الضعيف الذي يحتاج إلى الرعاية والعناية.

ورحمة الله واسعة لا تشمل الإنسان فحسب، بل تشمل كل مخلوق خلقه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالله تعالى هو المتصرف في شئون هذا الكون، وكل ما في الكون ملك له، والإنسان وغيره مخلوقات ضعيفة منقادون لله تعالى، ومع هذا فإن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة؛ تفضلاً وتكرماً، وهذه نعمة عظيمة على المرء أن لا يغفل عنها.

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، رقم ٢٩٦٥، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وهذا يفيد الرجاء، أي: رجاء أن ترحموا. وفي هذا التعبير دلالة على أن الرحمة من الله يعطيها لمن يشاء، فلتطلب الرحمة من طرقها مع رجاء الله في نيل رحمته، أي: إن من أهم طرق الرحمة هو: رجاء الله في نيلها، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يدخل هو الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. فرجاء رحمته تعالى هي أهم شيء في طلبها.

قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].
﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولهذا نجد القرآن الكريم يحثنا كثيرًا على طلب رحمة الله وعدم القنوط من رحمته تبارك وتعالى التي وسعت كل شيء، وسعت الإنسان مهما عمل من المعاصي إذا تاب.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

والله تعالى يختص برحمته من يشاء، وقد خص بها أصنافًا من المؤمنين، ومن هؤلاء الأصناف: المتقون.

قال تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخَذُوا اللَّهَ

وإذا كانت رحمة الله تعالى تقتضي الإحسان والتخفيف والرفقة على هذا المخلوق الضعيف، وأنها تشمل المؤمن والكافر، إلا أن هناك رحمت خاصة يخص بها عباده المؤمنين الطائعين، وهذه الرحمة تعني: زيادة العطف والعناية والرفقة بهؤلاء المؤمنين، فالله يحيطهم برحمة خاصة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقد رسم لنا القرآن الطريق لنيل رحمة الله التي خص بها عباده، فمن هذه الطرق:

١. تلاوة القرآن الكريم والاستماع مع الإنصات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣. الاستغفار: ﴿لَوْلَا سَتَمَغْرُوبٌ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

٤. الإصلاح مع التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

والملاحظ في هذه الآيات وغيرها أن الله تعالى يعبر عن نيل رحمته بـ (لعل) كما

وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].

ففي هذه الآية نجد أن من يتقي الله فإن الله يؤتیه كفلين من رحمته. وأصل الكفل: الحظ الذي فيه الكفاية، أي: يؤتكم نصيبين من رحمته.

قال ابن عاشور: «والكفل - بكسر الكاف وسكون الفاء -: النصيب، وأصله: الأجر المضاعف، أي: يؤتكم أجرين عظيمين، وكل أجر منهما هو ضعف الآخر مماثل له، فلذلك ثني كفلين»^(١).

وقال سيد قطب: «أي: يعطكم نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها الإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والرحمة هنا ذكرت مقابل العذاب: «قال عذابي أصيب به من أشياء ورحمتي وسعت كل شيء» ففي مقابل العذاب جاء ذكر الرحمة؛ لبيان أن الرحمة تسبق العذاب،

كما ورد في الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي).

قال أبو السعود: «وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات. وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد»^(٣). وقد كانت الرحمة هنا أولاً للذين يتقون.

٥. قبول العمل.

وقبول العمل يعني: أخذه مع إعطاء الثواب عليه، أو الرضا به مع إثابة العامل.

وقد امتن الله على المؤمنين بأن أثابهم على استقامتهم بقبول أفضل أعمالهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ثم قال عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وقبول العمل عطاء من الله تعالى، ولهذا ورد الدعاء بقبول العمل. فهذا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام يأمرهما الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، فيقومان بعملهما؛ امتثالاً لأمره تبارك وتعالى، ثم يدعوان الله أن يتقبل عملهما.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧٨.

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَيَسْجُدُ لِلرَّبِّ قَبْلَ مَنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].
وهذه امرأة عمران تدعو الله تعالى أن يتقبل منها نذرها، فيكرمها الله تعالى بقبول نذرها.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وقال الزمخشري: «إنما أتيت من قبل نفسك؛ لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقٍ»^(١).

وهنا نقدر قيمة ما أعطى الله تعالى للمتقين من قبول العمل، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٦. التقوى ميزان التفاضل بين العباد.

وذلك أن ابني آدم عليه السلام قريا قريانا فقبل الله من أحدهما ولم يقبل من الآخر، فأراد الآخر قتل أخيه، فأخبره أن عدم قبوله؛ لانسلاخ نفسه من التقوى.

خصلة التقوى هي التي يتم بها التفاضل عند الله تبارك وتعالى، فأكرم الناس عنده من كان تقياً. ولا فضل لأي إنسان، ملكاً كان أو أميراً، صاحب مال أو جاه أو سلطان على غيره من الضعفاء والفقراء.

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يُدْعَىٰ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَاقِنْتُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال أبو السعود: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧.
(٢) الكشاف ١/ ٣٣٣.

قال أبو السعود: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فهو ميزان التفاضل الحقيقي الذي يضع الناس في أماكنهم، ويجعل تقييمهم حسب المبادئ والقيم والأخلاق. وليس حسب مقاييس اجتماعية براقية كاذبة خداعة. المقاييس التي تجعل من الناس طبقات يتسلط فيها القوي على الضعيف، والغني على الفقير، يتسلط فيها أصحاب الفساد في المجتمعات، فتشتري الذمم وتنتشر الرذائل.

والكرم: اسم للأخلاق والأفعال المحمودة، ويقال: لفظ الكرم لمن ينفق في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالاً؛ ليجهز جيشاً في سبيل الله، أو يتحمل حمالة تحقن دماء قوم من الناس^(١).

وأكرم الأفعال وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، وأشرفها التقوى، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوْنَ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول سيد قطب في بيان معنى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى... وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل، إنها ليست للتناحر والخصام، إنما هي التعارف والوثام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات فتتوزع لا

يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون؛ للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هنالك ميزان واحد تتحد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوْنَ﴾.. والكرام حقاً هو الكريم عند الله^(٢).

٧. التقوى طريق للعلم.

والتقوى طريق لتحصيل العلم، حيث قرن القرآن الكريم بين العلم والتقوى الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والعلم الحقيقي هو العلم الموصل إلى الهداية؛ لأن كل ذرة في هذا الكون تشهد بأن الله هو خالق هذا الكون، فمخلوقات الله تشهد على خالقها، وهذا النوع حث القرآن على النظر فيه والتفكير في شأن السماوات والأرض.

فإذا لم يكن العلم موصلاً إلى الهداية ومؤكداً لحقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فليس هو العلم الذي دعا إليه القرآن الكريم وحث على التعلم فيه، لذلك نجد كثيراً ممن لا تزيدهم علومهم إلا جهلاً بالحقيقة وابتعاداً عن الإيمان بالله تعالى وهم قلة، وقد قص علينا القرآن مثال الذي آتاه الله

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٨.

كانت العلوم الكونية موصلة إلى معرفة أسرار المخلوقات الدالة على خالقها.

وعلى هذا فالعلم الحقيقي موصل إلى الهداية، ومعرف بالحقيقة الأزلية؛ حقيقة خلق الله للأشياء وقدرته وإبداعه، والعلم بهذه الصفات عطاء إلهي، فمنها ما يتوصل إليه بأسباب، ومنها ما لا يكون للوصول إليها إلا بإرادة الله تعالى، ولهذا نجد أن الله تعالى أعطى العبد الصالح -صاحب موسى عليه السلام- من العلم ما لم يعطه لموسى عليه السلام نفسه، وهو نبيه ورسوله، والذي جاء خبره في سورة الكهف، حيث قال تعالى عن العبد الصالح: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقد أوحى الله إلى موسى أن هناك عبدًا أعلم منه، وأرشده للذهاب إلى لقياه والتعلم منه^(١).

وقد جعل القرآن بعض الأمور سببًا في منح شيء من علم الله لهم منها التقوى، فقد جعل القرآن التقوى سببًا من أسباب منحهم شيئًا من علمه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ينبئ عن أن التقوى تثمر العلم.

يقول رشيد رضا: «أي: اتقوا الله في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٩١.

علمًا فأضله الله على علم: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَامَنَتْهُمْ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَخَّرْنَا لَهُ كَمَلًا أَكْثَرَ كَمَا يَحْسَبُ عَلَيْهِ يَآئِهِمْ أَوْ تَرَكُوهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

والعلم الحقيقي هو الذي يتغي به الإنسان وجه الله، ويكون سببًا في هداية المرء وتعرفه على مخلوقات الله، فيعرف الله سبحانه وتعالى من معرفة مخلوقاته، ولهذا نجد أن القرآن الكريم يمتدح الذين يعقلون والذين يتفكرون في مخلوقاته، وينعى باللائمة على الذين لا يعقلون والذين لا يتدبرون.

ولهذا أشار القرآن إلى أن العلماء هم الذين يخشون الله حق خشيته، وقد خصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويدخل في إطار العلماء كل من كان له علم حقيقي، سواء كانوا عالمين بالله وبصفاته وبقدرته أم بمخلوقاته وأسرار خلقه من علم بأمور الطبيعة والكون، فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل على أن الله خالقه ومبدعه. والله جعل في هذا الكون دلائل قدرته وأظهر فيه بدائع صنعه، لذا

جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون بذلك»^(١).

ويقول سيد قطب: «ثم - وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمير، لا من مجرد ضغط النص - يدعو المؤمنين إلى تقوى الله في النهاية، وذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم، وهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيء أرواحهم للتعليم؛ ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان»^(٢).

ويقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ تذكير بنعمة الإسلام الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشرعية، ونظام العالم الذي هو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك؛ لأنه جيء فيه بالمضارع.

وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، أي: ليعلمكم»^(٣).

فالتقوى سبب إفاضة العلوم على الإنسان، فإن من ابتعد عن معاصي الله تعالى ورثه علم ما لم يعلم. وهذا كما قال

الإمام الشافعي^(٤):
شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

ثانياً: البركة في الرزق:

ومن ثمرات التقوى: الرزق، فإن من يتق الله فينتهي عما نهى عنه، ويعمل بما أمره به، فالله يرزقه من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ ﴿٤﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والرزق من القضايا التي استأثر الله بها وأعطى منها الإنسان بما يشاء تبارك وتعالى وكيف يشاء.

والله وصف نفسه بأنه هو الرزاق: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ومعنى ذلك: أنه هو الذي خلق الأرزاق وجعل في الأحياء الباعث على اكتسابها، وخلق فيهم أسباب التمتع بها. لذا كان الرزق من الله وحده، يعطيه لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

والله تبارك وتعالى قسم الرزق بين عباده فأعطى كلاً منهم بما يشاء، أعطاه لحكمة

(١) المنار، ٣/ ١٣١.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٣٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١١٨.

(٤) ديوان الشافعي ص ٧٦.

- [٣٥].

فلولا الخشية رحمة بالمؤمنين من أن يكون المال فتنه لهم لكان علامة الكافرين أن يغدق عليهم المال الكثير.

والله تبارك وتعالى جعل للرزق أسباباً معينة وربط بها الرزق، وحث على طلب الرزق في مظانه، ومن جملة هذا الأسباب:

١. السعي في طلب الرزق.

فقد أمر الله تعالى الإنسان أن يسعى في

طلب رزقه، فقال: ﴿فَامشُوا فِي مَنَآكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [المالك: ١٥].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للسائل: «إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

وينبغي أن يكون مع السعي توكل على الله تعالى واعتماد على أنه هو مصدر الرزق، فيسعى للرزق وقلبه معلق بالرزاق يدعوه مبتغيًا منه الرزق.

قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

لذلك كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو الله أن يرزق زوجته وولده: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

٢. الاستقامة على هدي الله.

وقد يكون من أسباب إفاضة الرزق على العباد الاستقامة على هدي الله

يعلمها هو تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رِزْقَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

فمسألة بسط الرزق وتقديره تتعلق بحكمة من عند الله تبارك وتعالى فهو يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء، فقد يغدق على أهل الخير أو على أهل الشر، وقد يضيق عليهم، كل ذلك؛ لئيتليهم بأمر هذا الرزق.

وبسط الرزق وتقديره يرجع لحكمة، فيعطي الله تعالى كل إنسان بما يشاء وبالقدر الذي يكون أفضل للإنسان المؤمن، فالله تعالى يعلم من أحوال بعض المؤمنين أن قلة المال أفضل لهم حتى لا يشغلهم المال عن ربهم فيضيق عليهم. والمال في حد ذاته فتنه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

إلا من عصمه الله تبارك وتعالى، ولهذا يضيق الله على بعض المؤمنين حتى لا تكون فتنه لهم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَيُؤْتِيَهُم آيَاتِنَا وَسِرًّا عَلَيَّهَا يَتَكُفَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُفِّلَ ذَلِكَ لَمَّا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

تبارك وتعالى، فإن آمن بالله وعبدته واتقاه واستغفره وعمل ما أمر به فإن الله يفيض عليه من النعم التي لا تعد ولا تحصى. وكثيراً ما يربط القرآن بين الإيمان وصلاح القلوب وبين إفاضة النعم الدنيوية، فضلاً عن الآخروية.

فقد جاء على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنَزِّلِ عَلَيْكُمْ مَائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ لِيُشْكِلَ لَكُمْ وَلِيَنصَحَ لَكُمْ وَأَلَّا تَكُونُوا مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقد ربط القرآن في أكثر من موطن بين التقوى وبين إفاضة النعم، فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَقْدَرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

ربط فيه بين التقوى وبين إفاضة النعم الدنيوية.

والحديث وإن كان في معرض الكلام عن أحكام الطلاق إلا أن الآية عامة ويندرج فيه أمور الطلاق.

قال الألويسي: «وجوز أن يكون اعتراضاً جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ يُعْظَمُ بِهِ﴾ [الطلاق: ٢]. وهو أولى؛ لعموم الفائدة»^(١).

ومعنى قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ «أي: من جهة لا تخطر بباله»^(٢).

فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع عنهم ما يضرهم، ويجلب لهم ما يحتاجون إليه، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً فليستغفر الله وليتب إليه.

ثالثاً: غفران الذنوب وتكفير السيئات:

ومن ثمرات التقوى أن الله يغفر ذنوب المتقين، وذلك أن الإنسان لا بد له من الخطأ والذنب، والله تعالى وعد المتقين بمغفرة الذنوب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

ومعنى غفران الذنوب هو كما قال الراغب: «أن يصون العبد من أن يمسه العذاب»^(٣).

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية. والله تعالى يغفر ذنوب المتقين، أي: يسترها ولا يحاسبهم عليها. قال ابن عاشور:

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٠.

(٣) المفردات ص ٣٦٢.

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٣٥.

«ويتعين أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبر عنها باللمم، ويجوز أن يكون العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل: التكفير: الستر في الدنيا، والغفران: عدم المؤاخذه بها في الآخرة»^(٣).

وهذا الأخير قاله الألوسي حيث قال: «**وَيَكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**» أي: يسترها في الدنيا **«وَيَغْفِرُ لَكُمْ**» بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار»^(٤).

رابعاً: تيسير الأمور وتفريج الهموم:

ومن ثمرات التقوى أن الله يجعل أمور المتقين ميسرة، ويخرجهم من الضيق الذي يعانون منه، ويصلح لهم أعمالهم.

قال تعالى: **«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»** [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: **«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا»** [الطلاق: ٤].

فمن كان في ضيق أو تعسر عليه أمر وأراد تيسير أموره فعليه بتقوى الله تعالى. واليسر هو جعل الأمور سهلة غير معقدة، ولا ضيق فيها، يضاده: العسر، الذي هو تضيق الأمور وجعلها معقدة غير ميسرة.

وقوله تعالى: **«ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ»** [عبس: ٢٠]. أي: سهل خروجه.

«وغفران الذنوب جزاء على التقوى؛ لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة»^(١).

ويقول سيد قطب: **«وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»** [آل عمران: ٣١]. فالإنسان إنساناً مهما وهب من النور، إنساناً يقصر حتى لو عرف الطريق، إنساناً يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله»^(٢).

وقال تعالى: **«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا»** [الطلاق: ٥].

فليس الأجر على التقوى تكفير السيئات فحسب، بل زيادة في الأجر، فإن الله يضاعف الحسنه إلى سبعمائة ضعف أو أكثر.

أما قوله تعالى: **«يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ»** [الأنفال: ٢٩].

فقد جمع هنا بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب مما يدل على اختلافهما.

قال ابن عاشور: «والتقوى تشمل التوبة، فتكفير السيئات يصح أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى. ومفعول **«وَيَغْفِرْ لَكُمْ»** محذوف، وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب،

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٧.

(٤) روح المعاني ٩/ ١٩٦.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

﴿الشرح: ٥: ٦﴾.

[الحج: ٧٠].

أي: سهل غير صعب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

واليسر نعمة من الله تعالى يمن بها على عباده المؤمنين المتقين، ولهذا عندما كلف الله موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، طلب موسى من الله تعالى أن يجعل أمره سهلاً يسيراً: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٦].

فتيسير الأمور نعمة كبرى يمن الله بها على عباده.

يقول سيد قطب: «واليسر في الأمر غاية ما يرحوه إنسان، وإنها نعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده. فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق. يأخذ الأمور يسر في شعوره وتقديره، وينالها يسر في حرفته وعمله، ويرضاها يسر في حصيلتها ونتيجتها»^(١).

والعسر - الذي هو ضيق في الأمور سواء كان في المعيشة أو غيرها -؛ ابتلاء من الله تعالى يتلّى به العباد؛ ليعلم الصابر من غيره. وقد امتن الله على عباده بأنه رحيم بهم لم يجعل أمورهم كلها في عسر وضيق، بل جعل الفرج من شدة الضيق.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ

فقد جعل الله تعالى مع كل عسر يسراً، فإن العبد قد يشتد عليه أمرٌ ما، ولكن الله جعل مع كل عسر يسراً. وجاء في الآية تكرار ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾؛ ليؤكد هذا الأمر، وجاء اليسر منوئاً بينما العسر معرفاً؛ لتفخيم أمر اليسر. وجعل بعضهم اليسر يسران أخذاً من الآية، وحمله بعضهم على يسر الدنيا ويسر الآخرة^(٢).

فالله جعل اليسر ملازماً للعسر، وقد عبر عنه بالمعية مع العسر؛ للدلالة على ملازمته الأكيدة والتامة. وفي هذا حث لمن أصيب بالعسر أن يصبر على العسر فإن اليسر معه.

فمن العسر ما يصيب الإنسان من ضيق في أمر معيشته، فإن على المرء أن يصبر ويحتسب ذلك عند الله تعالى؛ لأنه فيه ابتلاء، كما أن الفرج ملازم لهذا الضيق.

ومن العسر ما يصيب الإنسان من ضر في بدنه، فعلى المرء الصبر على ذلك؛ فإن الفرج لا بد آتية، وهذا ما حصل لنبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام فصبر واحتسب، فمن الله عليه بالشفاء، وأخرجه من هذا الضيق الذي عاناه.

وهذا نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام يقع في الضيق فيسجن، ولكنه صبر واحتسب، فكان أن من الله عليه بالفرج

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٢.

(٢) انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٧٠.

لأن المسلمين لا يتغلبون على أعدائهم بمجرد العدد والعدة، بل لا بد من طاعتهم لله تبارك وتعالى، لذا كانت التقوى من أهم المواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المجاهدون في سبيل الله؛ لتحقيق النصر.

وكثيرًا ما يتم التعبير عن المؤمنين - في سياق القتال والجهاد - بالمتقين، وذلك؛ إبرازًا لصفة التقوى وأهميتها، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَقُولُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذه المعية ليست خاصة بصنف من المؤمنين وهم المتقون، ولكنها عامة لكل المؤمنين، وقد عبر عنهم بالمتقين؛ إبرازًا وتأكيدًا لأهمية هذا الوصف في هذا الجانب وهو القتال في سبيل الله.

قال أبو السعود: «ووضع الظاهر موضع الضمير؛ للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين»^(١).

أي: إنه قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولم يقل: إن الله معكم.

وقال الأوسى: «وإنما وضع المظهر موضع المضمرة؛ مدحًا لهم بالتقوى، وحثًا للقاصرين على ذلك، وإيدانًا بأنه المدار في

والخروج من الضيق.

ومن العسر ما يصيب الأنبياء، وكذلك الدعاة من عدم استجابة الناس للدعوة الإلهية، فيصبرون، ثم يأتيهم الفرج والخروج من ذلك الضيق.

والخروج من الضيق والعسر إما أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، فيكون في الدنيا بتفريج الأمور وقلبها من الشدة إلى اليسر، وهذا ما حصل ليوسف عليه السلام عندما خرج من السجن وجعله الملك أمينًا للخزائن، وكذلك حصل لأيوب حينما برأه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُمْ ءَٰهْلَهُمْ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

وقد لا يكون التفريج في الدنيا، فيكون في الآخرة بأن يشيئه الله تعالى عليه في الآخرة بالثواب العظيم.

ولكن الله تعالى جعل بعض الأمور تزيد في تسهيل الأمور والخروج من الضيق الذي يعانیه المرء، ألا وهي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

خامسًا: النصر والتمكين:

من أهم عوامل النصر للمسلمين التقوى؛

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١١٢.

النصر»^(١).

وفي سورة التوبة: ﴿وَقِنلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقِنلُونَكُمْ كَآفَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

كما يبين تبارك وتعالى أنه لا بد من الصبر والمصابرة والمرابطة مع اقترانهما بالتقوى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والمعنى: واعلموا أن الله معكم، ولكنه جعل معيته للمتقين؛ إبرازًا لهذه الصفة، كأنها صارت مثل الشرط، كما قال ابن كثير: «واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه»^(٢).

وقد بين الله تعالى أن المؤمنين في غزوة أحد لو أنهم صبروا واتقوا ربهم لأمدهم بالملائكة ونصرهم على أعدائهم. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَآلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وفي سورة محمد يتحدث عن القتال فيذكر الجنة التي أعدها الله للمؤمنين فيقول: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فلا بد من الصبر في المعركة واقتراحه بالتقوى حتى يكون النصر والتمكين للمؤمنين المتقين. لذلك نجد في مواطن كثيرة يعقب عليها القرآن بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فيبرز صفة التقوى؛ لأهميتها في هذا المجال.

وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]. قال أبو السعود: «وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى» أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ تبيينًا على أن ملاك الأمر هو التقوى»^(٣).

ومن أهم واجبات المؤمن في المعركة الصبر في مواطن القتال، فلا نصر بلا صبر. وكثيرًا ما تحدث القرآن عن الصبر وقرنه بالتقوى، فإن من تمسك بالصبر والتقوى كان في مأمن من كيد الأعداء وكانت له العاقبة والنصر.

وكذلك نجد أن القرآن الكريم يمتن على المؤمنين بالنصر في غزوة بدر ويطلب منهم أن يشكروا الله على هذا النصر، طلب منهم أن يشكروه بالتقوى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا عَمَلْتُمْ جُبِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١) روح المعاني ٩٣/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٨٤/٢.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥١/٦.

عاقبة التقوى وأثارها

بين الله سبحانه وتعالى عاقبة التقوى وأثارها في القرآن الكريم، وسوف نتناول ذلك فيما يأتي:

أولاً: عاقبة التقوى في الدنيا وأثرها على الفرد والمجتمع:

بين الله تبارك وتعالى أن العاقبة الحسنی للتقوى والمتقين.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

فقد أمر الله تبارك وتعالى بالتقوى وتحصيل مبادئها وترك الالتفات إلى ما سواها؛ لأن العاقبة والنتيجة الحسنی للتقوى، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

وأصل العقب هو مؤخر الرجل، وخص العقب والعقبى بالثواب، وكذلك العاقبة^(١)، أي: الثواب الحسن للتقوى، مما يدل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير^(٢).

فالتقوى سبيل المؤمنين، وخلق الأنبياء والمرسلين... ووصية الله تعالى لعباده الأولين والآخرين. يقول القرطبي: «التقوى

يَبْدُرُ وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل

عدنان: ١٢٣].

فإن في التقوى شكرًا له على النصر، وحتى يدوم لهم النصر فلا بد من التقوى. فالقرآن يلوح دومًا بالتقوى في مجال الجهاد وفي المعركة، فلا بد من ملازمتها للمجاهد في سبيل الله تعالى، وأنه بقدر تقوى المؤمنين يعطيهم النصر، ويقدر ابتعادهم عن التقوى يسלט عليهم عدوهم كما حصل يوم حنين عندما أعجب البعض بكثرتهم.

(١) المفردات، الراغب ص ٣٤٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٩٥.

الرزق والعلم وراحة البال، وكل ما يسعد الإنسان في حياته، يسلم أمره لله في كل شأنه من شئون حياته، ويعلم علم اليقين أن الله الذي يعلم السر وأخفى متكفل به.

والمجاهد في سبيل الله يدرك تمام الإدراك بأنه لو اتقى الله حق تقواه فلا بد أن ينصره الله على عدوه، وإن لم يظهر نصره فلخلل في تقواه، إلا أن العاقبة الحسنى في الدنيا للمتقين.

والمجتمع المسلم التقي الذي يؤمن أن في التقوى خيره وما يسعده، فيظهر أثر التقوى في سلوك ذلك المجتمع، وتجد التكافل في أبلغ صورته من التكافل بين الأفراد، وسد حاجة بعضهم لبعض، ويظهر في المجتمع أثر التعاون والإحسان للمحتاج، كما يظهر أثر الإيثار بين الناس، وكرائم الأخلاق، من الصدق والإحسان وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

لذلك فإن كان بين العباد فرد فاضل ومجتمع فاضل ومدينة فاضلة فهو مجتمع التقوى والمتقين.

وهذه المثالية لم توجد في مجتمع آخر، كما وجدت في مجتمع المسلمين الأتقياء، لقد وصل الناس في زمن من تاريخ المسلمين لأن ينادى في الشوارع بالصدقات إذا كان هناك أحد يستحقها فلا يجدون، والفرد يتعلم العلم في جميع

فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان^(١).

ويقول العلامة الفيروزآبادي عن التقوى: «لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأولى في الحال، وأنجح في المآل من هذه الخصلة لكان الله سبحانه أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك؛ لكمال حكمته ورحمته.

فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين من عباده، واقتصر عليها، علمنا أنها الغاية التي لا تتجاوز عنها ولا مقتصر دونها. وأنه عز وجل قد جمع كل محض نصح ودلالة وإرشاد وسنة وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة»^(٢).

يقول سيد قطب: «فالإنسان هو الرابع بالعبادة في دنياه وأخراه، يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح، ويعبد، فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى، والله غني عن العالمين»^(٣). لذلك فإن للتقوى أثرًا عظيمًا على حياة الناس:

فالفرد التقي يجمع كل صفات الخير وينال كل أسباب السعادة الدنيوية، من

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/١٦٢ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٢/١١٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٣٥٧ .

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿البقرة: ٢١٢﴾.

وقد أكرم الله المتقين إكرامًا خاصًا في كل مشهد من مشاهد الآخرة، إليك بيانها:
١. عند الوفاة.

يبين القرآن الكريم مشهد المؤمنين المتقين عندما تقبض الملائكة أرواحهم، وكيف تتلقاهم الملائكة بطيب وسرور بالغ وهم يزفون تلك الروح إلى جنة الخلد.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿النحل: ٣٠ - ٣٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

قال الراغب: «وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس...، والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٠]»^(١).

(١) المفردات ص ٣٠٨.

مراحل حياته وهو مكفول في كل مراحل طلبه للعلم من خلال الأوقاف الكثيرة التي تنفق على طلبة العلم، ولم يعد عند القضاء إلا مسائل معدودة يختلف فيها الناس، ومثل ذلك وغيره كثير.

ثانيًا: عاقبة التقوى في الآخرة:

للمتقين في الحياة الآخرة شأن عظيم، ومهما كان أمرهم في الحياة الدنيا فإنهم في الآخرة أفضل مقامًا وأجرًا.

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الدار التي يقيم فيها المتقون في الآخرة أفضل منها في الدنيا، فإنه بقدر ما أعطاهم من ثمرات على التقوى في الدنيا فإنه يعطيهم أفضل منها في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].
وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكذلك يكون الجزاء في الآخرة أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا

والوفود هم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج.. وهذا المعنى الذي ذكره هو المشهور، ومن هنا قيل: إن لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل، حيث أذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك، وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحثيات؛ لأنها تتضمن الانصراف من الموفود عليه، والمتقون مقيمون أبدًا في ثواب ربهم عز وجل. والكلام على تقدير مضاف، أي: إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك...، وكان الظاهر بأن يقال: يوم نحشر المتقين إلينا، إلا أنه اختير الرحمن؛ إيدانًا بأنهم يجمعون من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة إلى من يرحمهم^(٤).

٣. عند اجتياز الصراط.

وبعد بعث الناس وحشرهم يأتي الحساب، فيعطى كل إنسان كتابه يمينه أو شماله، ثم يمرون على الصراط. والصراط جسر على جهنم يمر عليه الناس مؤمنون وكافرون، فيسقط في النار الكافرون ومن قضي عليه بالعذاب، بينما ينجي الله المؤمنين المتقين من الوقوع في النار.

وقد وردت روايات في وصف الصراط

بأنه أحد من السيف وأدق من الشعر.

(٤) روح المعاني ١٦/١٣٦.

فالملائكة تتوفى المؤمنين حال كونهم طيبى النفوس، أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي، وقيل: «فرحين طيبى النفوس بإشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه أنفسهم بالكلية إلى جانب القدس»^(١).

فإن النفس المؤمنة تكون طيبة فرحة بلقاء ربها: ﴿يَأْتِنَهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ (٣٧) ﴿أَرْجُو إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً﴾ (٣٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٣٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

٢. يحشر المتقون حشر تكريم.

فإذا كان المجرمون يحشرون على وجوههم صمًا وبكمًا وعميًا فإن المتقين يحشرون حشر تكريم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قال ابن عاشور: «أي: حشر الوفود إلى الملوك، فإن الوفود يكونون مكرمين»^(٢).

وقال ابن كثير: «إنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا، والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود»^(٣).

وقال الألوسي: «أي: ركبانًا... وأصل الوفد جمع وافد، كالوفود والأوفاد والوفد، من وفد إليه وعليه وفدًا ووفودًا ووفادة وإفادة: قدم وورد.. وقال الراغب: الوفد

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١١١/٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/١٦٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/١٣٤.

وقال ابن عاشور: «والمعنى أن المتقين يجدون الجنة حاضرة فلا يتجشمون مشقة السوق إليها»^(٢).

بينما قال عن الضالين المجرمين: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

«أي: جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة، ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها»^(٣).

وكذلك فإن المتقين يصلون إلى الجنة فيجدون أن الأبواب قد فتحت لهم وأن خزنة الجنة واقفة عند باب الجنة؛ لاستقبالهم.

أما عن استقبال الملائكة لهم وكيفيته فقد قال الله فيه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فالملائكة تستقبلهم بالسلام قائلين لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويبينون لهم سبب هذا الدخول وهذا الاستقبال بقولهم: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طبتم من دنس المعاصي والآثام، والتطيب هو التطهير، أي: تطهرتم من المعاصي والشرك، قال سيد قطب: «فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب. وبيان السبب ﴿طِبْتُمْ﴾ وتطهرتم، كتتم طيبين، وجتتم طيبين»^(٤).

وقال الألوسي: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: من

(٢) التحرير والتنوير ١٩/١٥١.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٩/١٠١.

(٤) في ظلال القرآن ٥/٣٠٦٣.

وعلى هذا الصراط يعبر المؤمنون المتقون، ولكن سرعة عبورهم على حسب أعمالهم، وذلك أن المتقين يمرون فلا يقعون، وعندها ينجيهم الله برحمته من الوقوع في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَلِإِنْ مَنَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ تَسْجَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدْرًا ظَالِمِينَ فِيهَا جَنَّتًا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

واختلف المفسرون في المراد بالورود، فقال بعضهم: يراد بورود النار: دخولها، فيدخلها المؤمنون، ولكنها تكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: إن المراد بالورود المرور عليها من غير دخول.

٤. عند دخول الجنة.

وأول ما نلاحظه في الآيات من دخول المتقين الجنة: أن المتقين قبل دخولهم الجنة فإن الجنة تقرب لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

ومعنى الإزلاف: التقريب، أي: قربت الجنة للمتقين.

قال أبو السعود: «أي: قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيتهجون بأنهم المحشورون إليها»^(١).

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/٢١٥.

توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوا من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره»^(٤).

دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفساً بما أتيج لكم من النعيم المقيم، والأول مروى عن مجاهد، وهو الأظهر^(١).

وقال أبو حيان: «طبتم أي: أعمالاً ومعتقداً ومستقراً أو جزاء»^(٢).

فالملائكة تستقبل المتقين مسلمة عليهم كما ذكر في سورة (ق): ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [٣٤].

وبعد دخولهم إلى الجنة واستقبال الملائكة لهم يتوجه المتقون إلى ربهم بالحمد والشكر على هذه النعمة العظيمة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والمراد بالأرض: أرض الجنة، قال ابن كثير: «أي: أرض الجنة»^(٣).

وقال الزمخشري: «الْأَرْضُ» عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبواً، وقد أورثوها، أي: ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾؟ وهل يتبوا أحدهم مكان غيره؟

قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا

(١) روح المعاني ٣٤/٢٤.

(٢) البحر المحیط، ٧/٤٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/٦٩.

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، الإيمان، البر، الخشية